

مع قصة الأثر روبي جرييه

بقلم الدكتور عبد الحميد إبراهيم



الآن روبي جرييه

يشغل الوصف المركز الرئيسي في قصة آلان روبي جرييه ، فهو محور الارتكاز الذي يقوم مقام الحدث في القصة التقليدية ، الوصف الدقيق للموضوع الخارجي الذي يتناول جزئياته ويحاول تحديد مكانه بالنسبة لما حوله ، أن في قصة « الشاطئ » - التي سأقدم للقارئ ترجمة لها - يتتبع حركات الموجة وعلاقتها الظاهرة مع الموضوعات الخارجية ، واثار الاقدام على الرمل وعمقه وشكله .

ومن هنا كان اهتمامه « بالكاميرا السينمائية » ، لا بالمعنى الفوتوغرافي الذي يحاول ان يجعل من الفسيفساء صورة طبق الاصل للتجربة الخارجية ، فان هذا المعنى بذلك المفهوم الضيق قد تضاعف في عالم الفن ، لانه يمكن ان يساوي بين التجربة الفنية والدقة المهنية بل ان الدقة المهنية - كما تؤديها الكاميرا - تفوق بهذا المفهوم لانها قادرة على النقل والمطابقة . وانما اهتمام جرييه بالكاميرا نابع اساسا من اتجاهه الجديد في الاحتفاء بالموضوع كوجود قائم لا يخضع لمفاهيم مسبقة ولا لمشاعر انسانية ، فالشمس ليست حزينه والبحر ليس في معركة يرمى بالحجم والبراكين كما في الوصف التقليدي الذي يجعل الظاهرة الخارجية مجرد « ديكور » يحمل احساس الانسان . وانما الشمس - وقصة الشاطئ مثل على ذلك - هي الشمس بصورتها العمودي الحاد ، والبحر هو البحر بموجاته التي تنشا في فترات منتظمة وفي مكان محدد تحمل الحصى الذي يطفئ وتحدث نفرة فوق الرمال .

ومن هنا اختفت كل قيمة انسانية في قصصه ، فلا عاطفة او صدى لعاطفة ولا استمارة ولا خيال مما يضيف على الخارج لونا من الاحاسيس لا تتدخل في ماهيته ، لان كل الاحاسيس ملغاة في عالم جرييه ويعتبرها نوعا من الفزور البشري الذي يريد ان يخضع الوجود الكوني لمشاعره ، وقد يكون هذا الفرق مقبولا في عصر « الارض هي محور الكون والانسان هو سيد الوجود » ، اما وقد تبين بما لا يدع مجالا للشك ان الارض ذرة صغيرة في كون رهيب والانسان هو وجود مع موجودات كثيرة لها استقلاليتها وليست بالضرورة موجودة من اجله ، فلم يعد لهذا الادعاء مكانه (ما زلت اذكر لوحة (اشارة حساسة) للفنان التشيكي « ميكلو لاج ميديك » التي عرضت في معرض المستنسخات الدولية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ، فهي مجرد شكل لشئ يشبه □) . ولكن له وجوده الحاد المستقل الذي يفرض على المشاهد الهبة والخطورة ، انها تماما توحى بالفكرة نفسها التي توحى بها قصص آلان روبي جرييه .

ومع تلك الموضوعية التامة في قصص جرييه فاننا نحس بالتعبير عن جمود الحياة اكثر مما يفعل بيكيت مثلا ، الرعب والوحدة امام هذا العالم الخامد الذي لا ينطق بشيء اكثر من وجوده . ان كل شيء يتساقط وكل ما كان يعيش فيه الانسان من قبل هو وهم من صنع نفسه ، ان الانسان هنا لا يزيد في نظر الحياة عن هذه المجموعة من الطيور المتحركة على الشاطئ ، او عن اثار الاقدام ذات الوجود الميكانيكي وكل الفرق ان الانسان يسعى نحو شيء لا يدركه ولا يتبينه ، تماما كهذا الجرس الذي يدق من بعيد ويختلط صوته بطول المسافة .

ان جمود العالم وخرسه في هذه القصة التي نترجمها اكثر تعبيراً مثلا من بيكيت في مسرحيته « كسل الساقطين » فالرجل الذي التقي بالطفل - رمز الاستمرار - من القطار هو مرتبط بالحياة بصورة ما ، هو لا يرفضها الا لانه يعتقد فيها الكمال الانساني الذي يتطلع اليه . اما هنا فلا يفقد شيئا لانه لا يتطلب من الامور اكثر مما تقدم ولا يطمع في شيء من كوب جامد ، فلم الاحساس بالعبث ولم افتقاد المنطق من الحياة وهي لا تقدم للانسان الا كما تقدم للطيور او للبحر او للموجة ؟

بل انه جهود ازلي وملزم للكون ملازمة الصفة الجوهرية لماهية الشيء ، فالقصة تنتهي والوجود مستمر في سيره وسيكانيذيفيته ، الموجة ترتفع ثم تنالشي والاطفال يسرون ثم يعاودون السير والطيور تطير ثم تحط ، وهكذا حركة سمردية وآلية لا يدرك مفزاهها ولا منتهاها اذ لا مفزى ولا انتهاء لها .

وهنا نجد جرييه يقع في منطقة العبث على الرغم من مهاجمته لكتاب العبث التراجيديين على حد وضعه والذين يفترضون في الكون انسانا يصم اذنيه عن ندائهم فيجهدونه في « شكل لعنة فتردد متواتر رتيب تحت مظهر الحركة الدائمة » (٢) فالنشاط الانساني في هذه القصة وهو حركات الاطفال الثلاثة الرتيبة والمكررة ، وكذلك النشاط

١ - كاتب فرنسي ولد سنة ١٩٢٢ وما زال حيا ، اشتهر بمذهبه الجديد في وصف الشيء الخارجي وصفنا دقيقا يبرز حضوره المستقل تماما عن حضور الانسان . وهو يهاجم كتاب العبث لانهم يفترضون من الانسان والكون رابطة قد ضاعت وهم يتصايحون طلبا لاستردادها . من اشهر رواياته : البصاص (١٩٥٥) و « في التيه » (١٩٥٩) . ومن اشهر ما كتبه للسينما : « العام الماضي في مارينباد » . لم تترجم له قصص بالقاهرة ما عدا قصة « ثلاث رؤى » التي ترجمها الاستاذ (ادوار الخراط) ونشرها بمجلة « جاليري » سنة ١٩٦٨ في عدد مايو سنة ١٩٦٨ . وقد ترجم له الاستاذ مصطفى ابراهيم مصطفى كتابه « نحو رواية جديدة » ونشرته دار المعارف بالقاهرة .

٢ - نحو رواية جديدة ص ٦٢ .

الإنساني في قصة أخرى له هي « البديل » والمترکز فسي قراءة التلاميذ قراءة رتيبة لا حياة ولا معنى لها - هي مظهر من مظاهر الميث في اعنف صورته . والقصور ازاء الخارج وانعدام الحماسة للاستكشاف يحيل من الميث ما لا حد له وكما هو واضح من موقف الاطفال عند سماع الجرس فلا يتوقفون وانما هي جعل يتبادلونها وهم يسخرون في حركتهم ، وكذلك في موقف الرجل في قصة أخرى هي « الاتجاه الخاطيء » الذي يظهر فجأة ويلقي نظره على منظر القابضة والاشجار واشعة الشمس ثم يستدير ليرجع من حيث أتى .

ان جريه يقدم لنا عالما مستقلا وجامدا يشير الرهبة حتى آنية القهوة في قصة « البديل » لها وجودها الحد ، والقارئ يتحول امام هذا العالم المصمت الرهيب الى طفل يحاول ان يعرف عليه باللمس والبصر ، ولكنه لا يستطيع ان يصل الى التحديد فعلى الرغم من الوصف الدقيق و التحديد المكاني ، فما زال لكل شيء قابلا للمناقضة وما زالت الاوصاف المكانية نسبية ، يسار الفرفة مثلا في قصة « المانيكان » هو الجانب الايمن للنافذة . والاصاف تختلط ففي المرأة المستطيلة يظهر النصف الايمن للنافذة وفي مرآة الدواب تظهر النافذة كاملة بنصفيها وعلى آنية القهوة يظهر شكل مربع الاضلاع هو انعكاس مشوه للنافذة . ان العالم هنا يتحول الى العالم الذي ادشاه الانسان الاول . هو يتضخم ويكبر حتى يكون له وجوده المستقل بذاته ، آنية القهوة والنافذة والمائدة يتضائل امامها الانسان ، وكل الفرق ان الانسان الاول قد اسقط مشاعره على هذا العالم وافترض فيه روحا وجنا وسجرا ، اما هنا فكل المشاعر الانسانية تختفي ، ولا تبقى الا اوصاف يناقض بعضها البعض في محاولة للتعرف ، وليس حتما ان تصل هذه المحاولة الى القطع والتحديد . فهو يريد ان يقدم الوجود في نسبيته ومن خلال عملية خلق وتحطيم واوصاف تناقض وتنكسر وتدور حول نفسها ، انه لا يطلب من القارئ استئصال عالم ممثلي مغلق على نفسه بل يسأله ان يساهم في عملية الخلق وان يخترع بدوره العمل الذي يقرأ - والعالم ايضا - وان يتعلم بهذه الطريقة ان يخلق حياته هو « (1) .

ان الاثر الانساني وان اختفى او تضائل فما زالت الدعوة من المؤلف الى القارئ موجهة ، ان مجرد تصوير الخارج والكتابة عنه هو دعوة الى محاولة استنطاقه ، ان رائحة القهوة الساخنة التي تفوح في قصة « المانيكان » هي دعوة للانتظار البشري ولكنها دعوة تتطلب فهما جديدا يعتمد عن الفرور والاسقاطات الانسانية ، وان قصة « البديل » محاولة من تلميذ خارج الفصل في الامساك بفضن الشجرة ، يفغل عنها التلاميذ المشغولون بالقراءة وبالنظر الى صورة معلقة على الحائط لرجل منطوع ، يقول جريه وهو يدفع عن نفسه تهمة خلو قصصه من الانسان : « ولكننا نعلق على الانسان كل آمالنا فالاشكال التي يخلقها هي التي تستطيع ان تأتي للعالم بالدلالات » (2) .

وهنا في مصر قد نجد اتجاهات تتشابه - ولا اقول مفاثرة - مع فرجينيا وولف او مع كافكا او حتى مع بيكيت في عديمته المفرطة ، اتجاهات عشية تجد ميلا في نفوسنا ، ونعبر عن العالم الكئيب اللامعقول المليء بالاحباطات ، وقد نتخذ هذه التعبيرات الطابع الهلامي الذي يصور الانسان قبيل مرحلة التشكك وهو مادة مختلطة رحيمة تتساقط اليه اصداء مرعبة في العالم الخارجي ، او طابع اللاشعور الذي يعايشه الفنان ويوجد في منطقته السريالي عوضا عن واقع كئيب ، او عالم الطفولة في منطقها الذي يتحدى الصرامة والجهامة .

ولكننا لا نجد اتجاها يتشابه مع نزعة جريه الموضوعية ، ربما لان النفس المصرية في عمومها تميل الى التمييز عن الكتابة والاحساس بالاصطاحات المتنوعة والتركيز على الجانب الشعوري . وربما لان هذا التيار يحتاج الى موضوعية تامة لم ندرج عليها في سلوكنا وفي تفكيرنا والى جراحة نفسية بالغة لا تشتمر من مجرد مناقشة فكرة مساواتها في نظر الحياة - وانا الانسان المكرم - مع كل الموجودات مساواة تامة .

ربما .. وربما .. ولكن الافضل ان اتسرك لترجمة القصة الافضاء - في صورة تطبيقية - بكل هذا التجريد النظري .

الشاطيء (1)

كانوا اطفالا ثلاثة يمشون على طول الشاطيء ، يتجهون الى الامام، جنباً الى جنب ، يمسك كل منهم بيد الآخر ، يبدون في طول متقارب ، بل وفي عمر واحد هو حوالي الثانية عشرة ، وان كان الاوسط يصفرهم قليلا .

وما عدا هؤلاء الاطفال الثلاثة فالشاطيء الطويل مهجور من اوله الى آخره ، هو عبارة عن بقعة من الرمال ، منبسطة وعريض الى حد ما ، ليس به صخور متفرقة ولا برك ، بل كل ما به هو انحداد طفيف ، بين البحر والجرف الوعر الذي يصعب اجتيازه .

الطقس جميل جدا ، الشمس تثير الرمال الاصفر بضوء عمسودي حاد ، لا سحب في السماء ولا اية ريح ، المياه زرقاء هادئة دون ادنى هيجان من البحر الفسيح ، مع ان الشاطيء منكشف تماما على امتداد الافق .

1 - The beach ، ظهرت هذه القصة سنة 1962 ، وهذه ترجمة عن النص الانجليزي المترجم من « باربارا رايت » في كتاب « لقطات » .

وان كان في فترات منتظمة تحدث موجة مياغنة وتمتد بضع ايام على الشاطيء ، ولكنها هي الموجة نفسها في كل فترة ، وفجأة ترتفع ثم ما اسرع ان ترتطم ببقعة معينة ، دائما هي البقعة نفسها في كل فترة وبلا تغيير ، ودون الاحساس بان المياه في حالة مد يعقبه جزر ، بل على العكس سيبدو كما لو ان الحركة باكملها تتم في المكان نفسه . يحدث ارتطام المياه على جانب الشاطيء نقرة صغيرة ، وتأخذ الموجة في التراجع مصحوبة بقطعة الحمص المتدرج ، ثم تنفجر باسطة لونا كئيبا على المنحدر يغطي الارض التي كانت قد تراجعت عنها ، في احايين نادرة قد تزيد في الارتفاع قليلا وتبل لفترة وجيزة بضع لوحات اكثر . ويعود كل شيء الى ما كان عليه اولاً ، البحر في نمومته وزرفته يقف عند المستوى نفسه على الرمل الاصفر الممتد على طول الشاطيء ، حيث يسير الاطفال الثلاثة جنباً الى جنب ، لونهم اشقر يشابه السي حد كبير لون الرمل وشعرهم وجلدهم ، بل الى السمرة وشعرهم يميل الى البياض ، كان الثلاثة يلبسون ملابس متماثلة : بنطلون قصير

- 1 - نحو رواية جديدة ص 138 .
- 2 - المرجع السابق ص 125 .

كانت الفتاة في أقصى اليمين قريبا من البحر ، على يسارها الصبي الذي يصفرهم قليلا . الصبي الآخر القريب من البنت في طول الفتاة .

امامهم انبسط الرمال الصفراء الناعمة السى أقصى امتداد للبصر . شمالهم ارفع عموديا الحاجز الحجري البني الذي لا تتخلسه طريق واضحة . . يمينهم على امتداد الافق الأزرق الساكن نظرت البحر المنبسط بموجة صغيرة مباغته ، ما اسرع ان تنكسر فتتلاشى في رغوة بيضاء .

حينئذ يحدث ارتطام المياه ، بعد عشر الثواني ، النقرة نفسها التي تتجوف على جانب الشط ، ويطلق الرمل المتدرج .

تنكسر الموجة الصغيرة فتنتشر رغوتها اللبنة فوق المنحدر مسترجعة البوصات القليلة التي فقدتها ، خلال الصمت المخيم يحمل الهواء الهادى زنين جرس يدق من مسافة بعيدة .

قال اصغر الاطفال الذي يسير في الوسط : « هذا هو الجرس » . لكن صوت الحصى المتلاشي في البحر ابتلع هذا الرنين الخافت جدا . اصبح على الاطفال ان ينتظروا حتى نهاية الدورة لينتظروا الاصوات القليلة المتبقية التي افسدت المسافة .

قال اكبر الاطفال ! « هذا هو صوت الجرس الاول » . الموجة الصغيرة تنكسر على يمينهم .

حين عاد الهدوء مرة ثانية لم يعد الاطفال يسمعون شيئا ما . ما زال الاطفال الثلاثة الشقر يسرون بالايقاع المنظم نفسه وكل منهم يمسك بيد الآخر . فجأة كان مسا فد اصاب مجموعة الطيور التي امامهم والتي على بعد خطوات قليلة منهم فرفرت بأجنحتها وطار .

رسمت النقوس نفسه فوق المياه ، الى ان هبطت على الرمل وابتدأت تسير من جديد ، وفي المسافة نفسها ، تقريبا على حافة الامواج وعلى بعد حوالي مائة ياردة منهم .

قال اصغر الاطفال « لعله لا يكون صوت الجرس الاول ، فنحن لم نسمعه جيدا من قبل » .

اجاب الصبي التالي له « بل سمعناه وهو الصوت نفسه » . لكنهم لم يفيروا من خطوهم ، والنقوس نفسها ما زالت تظهر من خلفهم تحت اقدامهم الستة الحافية وهم يسرون .

قالت الفتاة : « لم تكن من قبل على قرب كاف » .

بعد دقيقة واحدة قال اكبر الاطفال الذي هو بجانب الجرف : « ما زلنا بعيدين » .

وحينئذ استمر الثلاثة يسرون في صمت .

ظلوا هكذا في صمت حتى حمل اليهم الهواء الهادى مرة ثانية دق الجرس وكان ما يزال غير واضح ، قال اكبر الاطفال حينئذ : « هذا هو الجرس » . لم يجب الاخران .

فردت الطيور التي كانت في متناول الاطفال اجنحتها وطاروا واحدا فائنين قشرة .

حطت جميعها دفعة واحدة فوق الرمل وجعلت تتحرك فوق شط البحر على نحو مائة ياردة من الاطفال .

البحر يمحو باستمرار اثارها الشبيهة بالنجمة . الاطفال الذين كانوا اقرب الى الجرف ويسرون جنبا الى جنب ممسكا كل منهم بيد الآخر خلفوا على عكس ذلك آثارا عميقة كانت خطوطها الثلاثية موازية لسط البحر على طول الشاطئ الممتد .

على اليمين تبرز الموجة الصغيرة نفسها على جانب البحر الساكن المستوى ، ودائما في المكان نفسه .

وقميص بهتت خيوطها الزرقاء ، كانوا يسرون في اتجاه مستقيم ، جنبا الى جنب ممسكا كل منهم بيد الآخر ، في موازاة البحر وموازاة الجرف وعلى بعد متساو من كليهما وان كان يقترب قليلا من البحر ، كانت الشمس عمودية فوق رؤوسهم فلم تحدث اشعتها ظللا عند اقدامهم .

امامهم امتد الرمل الصافي اصفر ولامعا من البحر الى الجرف . سار الاطفال في خط مستقيم ، وبسرعة منتظمة ، وبلا ادنى التغيرات خلفهم ، هادئين ، ممسكا كل منهم بيد الآخر . ومن ورائهم خلفت اقدامهم الحافية ثلاثة خطوط فوق الرمل المندى ، ثلاث سلاسل منتظمة بين آثار متماثلة وذات فراغ وعمق متساويين ولا خلل فيها .

كان الاطفال يتقدمون في خط مستقيم ، لم تبتد منهم لفظة ما ، لا للجرف الطويل الواقع على شمالهم ، ولا للبحر وفي الموجات الصغيرة التي تبرز على فترات والواقع على الجانب الآخر ، كانوا يميلون قليلا ميلا منتظما ليستديروا ويعاودوا السير من حيث اتوا . استمروا في طريقهم بخطوات سريعة ومنتظمة .

كانت مجموعة من طيور البحر تسير امام الاطفال على طول الشط ، وبالتقريب على حافة الامواج ، كانت موازية لهم في مسافة لا تتغير على بعد حوالي مائة ياردة منهم ، لكن قد يحدث ان الطيور تقلل من سرعتها فيكون حينئذ في محازاة الاطفال . وبينما يمحو البحر باستمرار اثر ارجلها الذي يشبه النجمة ، تظل اثار الاطفال محفورة بوضوح فوق الرمال المنداء ، حيث تأخذ الخطوط الثلاثة في الامتداد .

يظل عمق هذه النقوش ثابتا ، اقل من بوصة ، لا يتسوه شكلها سواء بتآكل حوافها او بعمق الانطباع الذي يحدثه كعب الرجل او اصبع القدم . بدت كأنها قد نقتبت ميكانيكيا فوق فشرة الارض المتحركة .

كانت خطوط الاطفال الثلاثية تمتد هكذا لمسافة بعيدة ، وبدت في الوقت نفسه وهي تقترب من بعضها ، وهي تبطيء في حركتها ، وهي تتجه في خط واحد يقسم الشاطئ على مدى طوله الى قسمين . وعلى نهاية النظر تختفي هذه الخطوط في حركة ميكانيكية دقيقة فالاقدام الستة الحافية ترتفع ثم تنخفض على التوالي وكأنها تقيس للوقت .

لكن كلما ابتعدت اقدام الحافية اقتربت من الطيور . اقدام لا تقطع الارض بسرعة اذا فورنت بالمسافة التي قطعت توا . بضع الطيور تتناقص بسرعة اذا فورنت بالمسافة التي قطعت تساوا . بضع خطوات فقط هي التي تفصل بينهما .

لكن ما ان يقترب الاطفال منها حتى ترفرف بأجنحتها وتطير ، واحدا فائنين قشرة ، وتشكل كل الطيور الابيض منها والرماذي قوسا فوق البحر ، ثم ما تلبث ان تهبط بادئة حركتها من جديد وفي المكان نفسه على حافة الامواج تقريبا وعلى بعد نحو مائة ياردة منهم .

حركة المياه عند هذا الحد كانت غير محسوسة ، الا في اللحظة التي يتغير فيها لون المياه كل عشر ثوان ، حين تلمع الرغوة المتطايرة في ضوء الشمس .

يتقدم الاطفال الثلاثة الشقر جنبا الى جنب ، بخطوات سريعة ومنتظمة ، ممسكا كل منهم بيد الآخر ، دون ان يصابوا بالآثار المنحوتة باحكام فوق الرمال النقية ، ولا بالامواج الصغيرة التي على يمينهم ، ولا بالطيور التي امامهم سواء منها ما يطير او ما يسير .

كانت وجوههم الثلاثة التي لفحتها الشمس والتي هي اشد سوادا من شعرهم تبدو متشابهة ، كذلك تعبيراتهم تتماثل في طابع الجسد والتفكير بل وفي شيء خفيف من القلق . وايضا ملامحهم لا تختلف ، مع انهم صبيان وفتاة ، شعر البنت اكثر طولا واحسن اعتناء واطرافها اكثر نحافة . لكن ملابسهم متطابقة : بنطلون قصير وقميص بهتت خيوطها الزرقاء .